مفتاح شخصية الصديق τ العقاد

لقد كان أبو بكر τ رجلًا كريمًا أليفًا من أهل الخير والمودة، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعًا متأصلًا فيه، مقرونًا بكل ما في الإعجاب من حب وثقة وإيمان، ولا جرم كان هذا الإعجاب «مفتاحًا لشخصيته» مفسرًا لكل ما يلتبس من أعماله، مميزًا لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات.

فشخصية الصديق τ لها مفتاح قريب المتناول، وهو هذا المفتاح، مفتاح الإعجاب بالبطولة، وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوَسْم الذي يتسم به كل عمل من أعماله وكل نية من نياته، وهو السر الذي نراه كامنًا في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه. وليقل أصحاب القياس المنطقي ما يحبون. فشاءوا أو لم يشاءوا، وأحبوا أو لم يحبوا، لقد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الإنسان، ولم يتم قط - ولن يتم فيما نرى - أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال.

خذ لذلك مثلًا حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر τ في أيام الدعوة المحمدية فصدقها؛ لأنه يصدق صاحبها ويركن إليه، وهو إعجاب بالبطولة التي تستحق الإعجاب؛ ولأن الإعجاب طبقات، فقد كان هو من طبقات هذا الإعجاب في أرفع مكان؛ لأنه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العُتاة المتجبرين، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء، ولم يعجب ببطل تروعه منه جلبة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء، ولم يعجب ببطل يزدهي بالثروة أو بالعُصْبة أولي القوة.

لا. لم يكن شيء من هذا هو الذي راعه من بطولة محمد عليه السلام؛ لأن محمدًا عليه السلام لم يكن ذا سطوة، بل كان عرضة للأذى من المسلطين عليه، ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء؛ بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء. ولم يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يصل به من يصل إليه، بل كان وحيدًا يطرده الأكثرون، فقيرًا يعينه الموسرون، وأولهم أول صدِّيقيه والمقبلين عليه.

إنما البطولة التي أعجب بها أبو بكر τ هي البطولة التي ليس أشرف منها؛ بطولة تعرفها النفس الإنسانية، هي بطولة الحق، وبطولة الخير، بطولة الاستقامة، وهي بعد هذا، وفوق هذا، بطولة الفداء، يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء، تلك هي بطولة محمد ρ، وذلك هو إعجاب الصدِّيق.

لقد كان عمر بن الخطاب τ معجبًا بمحمد ρ غاية إعجابه، محبًّا له غاية محبته ولكن «الإعجاب بالبطولة» كان صفة من صفاته ولم يكن صفته الأولى التي تغلب على جميع الصفات، وخليقته الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق. فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير، فكانت له طريق إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب وتنتهي معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف.

أما أبو بكر τ فقد كان الإعجاب أقرب طرقه إلى الإيمان، وأكبرها على السواء. وهما بعد هذا وذاك ملتقيان. فإذا كان عمر τ ثاني المتصرفين بعد نبيِّه وأستاذه وهاديه، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق، وبغير نظير.

من كتاب عبقرية الصديق – بتصرف

محاسن حِفظ اللِّسان[1]

قال أكثم بن صَيفي: مَقتلُ الرَّجل بين فَكَّيْه (يَعني لِسانه). وقال: رُبَّ قولٍ أشدَّ من صَول. وقال: لِكُلِّ ساقِطةٍ لاقِطة. وقال المهلَّب لبَنِيه: اتَّقوا زلَّةَ اللِّسان، فإني وجدتُ الرجل تعثُر قدمه فيقوم من عثرته ويزلُّ لِسانه فيكون فيه هلاكه. قال يُونُس بن عبيد: ليسَتْ خُلَّةٌ من خِلال الخير تكون في الرجُل هي أحرى أنْ تكون جامِعةً لأنواع الخير كلِّها من حِفظ اللِّسان. وقال قسامة بن زُهير: يا معشر الناس، إنَّ كلامَكم أكثرُ من صمتِكم، فاستعينوا على الكلام بالصمتِ وعلى الصواب بالفِكر. وكان يُقال: ينبغي للعاقِل أن يحفَظ لِسانه كما يحفَظ مَوضع قدمه، ومَنْ لم يحفظ لسانه فقد سلَّطه على هلاكه. وقال الشاعر:

عليكَ حِفْظَ اللسانِ مُجتهِدًا فإنَّ جُلَّ الهَلاكِ في زَلَلِـه

غيره:

وجُرْحُ السيف تأسُوه فيبرأ وجُرْحُ الدَّهرِ ما جرَحَ اللِّسانُ

جِراحاتُ الطِّعانِ لها التِئام ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

غيره:

احفَظْ لِسانَك لا تقول فتُبْتلَى إنَّ البلاء مُوكَّلٌ بالمنطِقِ

غيره:

لعمرُكَ ما شيءٌ عَلِمْتُ مَكانَهُ أحقُّ بِسِجْنٍ مِنْ لِسانٍ مُذلَّلِ

عَلى فِيكَ مِمَّا ليسَ يَعنِيكَ قوْلُهُ بقُفْلٍ شديدٍ حيثُ ما كنتَ فاقْفِلِ

قيل: تكلَّم أربعةٌ من الملوك بأربع كلماتٍ كأنما رُمِيَت عن قوسٍ واحد؛ قال كسرى: أنا على ردِّ ما لم أقُل أقدِرُ مِنِّي على ردِّ ما قلت، وقال ملِكُ الهند: إذا تكلَّمتُ بكلمةٍ مَلكتْني وإن كنتُ أملِكها، وقال قيصر: لا أندَمُ على ما لم أقُل وقد ندِمتُ على ما قلت، وقال ملك الصين: عاقِبة ما قد جرى به القول أشدُّ من النَّدم عليَّ ترك القول. وقال بعضهم: من حَصافة الإنسان أن يكون الاستماع أحبَّ إليه من النُّطق إذا وجَد مَنْ يكفيه؛ فإنه لن يعدِمَ الصمتُ والاستماع سلامةً وزيادة في العلم. وقال بعض الحُكماء: مَنْ قدر على أن يقول فيُحسِن فإنه قادِر على أن يصمُتَ فيُحسِن. وقال بعضهم: كان ابن عبيدة الرَّيحاني المتكلم الفصيح صاحِب التَّصانيف يقول: الصمتُ أمانٌ من تحريفِ اللفظِ وعِصمةٌ من زَيغ المنطِق وسلامةٌ من فضول القَول. وقال أبو عُبيد الله كاتِب المهدي: كُن على التِماس الحظِّ بالسُّكوت أحرَصَ منك على التِماسِه بالكلام. وكان يُقال: مَنْ سكت فسَلِم كان كمَنْ قال فغَنِم. وقال رسول الله ﷺ :إنَّ الله تعالى يكرَه الانبِعاقَ في الكلام، يرحَمُ الله امرأً أوجَزَ في كلامه، واقتَصَرَ على حاجته. قيل: وكلَّم رجلٌ سُقراط عند قتلِه بِكلام أطالَه، فقال: أنساني أول كلامِك طُول عهدِه فأرَّقَ آخِرُه فَهْمي لتَفاوُتِه. ولما قُدِّم ليُقْتَل بكَتِ امرأتُه فقال لها: ما يُبكيك؟ قالت: تُقْتَل ظُلمًا؟ قال: وكنتِ تُحبِّين أنْ أُقْتَلَ حقًّا أو أُقْتَلَ ظالمًا؟! وشتَمَ رجلٌ المهلَّب فلم يُجِبْه فقِيل له: حَلمْتَ عنه، فقال: ما أعرِفُ مَساويه وكرِهتُ أن أبهتَهُ بما ليس فيه. وقال سلمَةُ بن القاسِم عن الزُّبير قال: حُمِلْتُ إلى المتوكِّل وأُدْخِلْتُ عليه، فقال: يا أبا عبد الله، الزَمْ أبا عبد الله — يَعني المعتَز — حتى تُعلِّمَه من فِقهِ المدنِيِّين، فأُدْخِلْت حُجرةً فإذا أنا بالمُعتزِّ قد أتى في رِجْلِهِ نَعلٌ من ذَهَبٍ وقد عثَرَ به فسال دَمُه، فجعل يغسِل الدَّمَ ويقول:

---

[1] - المحاسن والأضداد - الجاحظ

يُصابُ الفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بلِسانهِ وليسَ يُصابُ المرءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ
فَعثْرَتُهُ مِنْ فيهِ تَرْمي برَأْسهِ وَعثْرَتُهُ بالرِّجلِ تَبرَا على مَهْل

فقلتُ في نفسي: ضُمِمْتُ إلى مَنْ أُريد أن أتعلَّم منه.

ضده

سُئل بعضُ الحُكماء عن المنطق، فقال: إنك تمدَحُ الصَّمت بالمنطق، ولا تمدح المنطِقَ بالصمت، وما عُبِّر به عن شيءٍ فهو أفضلُ منه. وسُئل آخر عنهما فقال: أخزى الله المُسَاكَتة؛ ما أفسدَها للِّسان وأجلَبَها للعَي! ووالله لَلْمُماراةُ في استِخراج حقٍّ أهدَمُ للعَيِّ من النارِ في يابِسِ العَرْفَج، فقِيل له: قد عرفتَ ما في المُماراةِ من الذم، فقال: ما فيها أقلُّ ضررًا من السكتة التي تُورِثُ عِللًا وتُولِّدُ داءً أيسَرُه العي. وقال بعض الحكماء: اللِّسَان عضوٌ فإن مرَّنتَهُ مَرُنَ وإن تركتَهُ حَرُن. ومِمَّن أفرطَ في قوله فاستُقبِلَ بالحِلم ما حُكِيَ عن شهرام المروزي؛ فإنه جرى بَينَهُ وبين أبي مُسلم صاحب الدولة كلام، فما زال أبو مُسلم يُحاوره إلى أن شتمه شهرام، فصمتَ أبو مُسلِم وندِمَ شهرام على ما سبَقَ به لِسانه، وأقبل مُعتذرًا خاضعًا ومُتنصِّلًا. فلمَّا رأى ذلك أبو مُسلم قال: لِسانٌ سبَقَ ووَهْم أخطأ، وإنما الغضبُ شَيطان والذَّنْب لي لأني جرَّأتُك على نفسي بِطولِ احتِمالي منك. فإن كُنتَ مُعتمدًا للذَّنْب فقد شَرِكتُك فيه، وإن كنتَ مَغلوبًا فالعُذْر يَسعُك، وقد غفَرْنا لك على كلِّ حال. قال شهرام: أيُّها المِلك عَفْوُ مِثلكَ لا يكون غَرورًا، قال: أجل. قال: وإنَّ عظيم ذَنْبي لن يدَعَ قلبي يَسكُن. ولجَّ في الاعتِذار، فقال أبو مُسلم: يا عَجبًا، كنتَ تُسيء وأنا أُحْسِن، فإذا أحسنتُ أسأتَ.

(إنَّ البلاءَ مُوكَّلٌ بالمنطق)[1]

قال المفضَّل: يُقال: إنَّ أولَ مَن قال ذلك أبو بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه، فيما ذكره ابن عباس، قال: حدَّثني عليُّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: لمّا أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يَعْرِضَ نفسَه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر، فدفعنا إلى مجلسٍ من مجالس العرب، فتقدَّم أبو بكر، وكان نسَّابة، فسلَّم، فردُّوا عليه السلام، فقال:

مِمَّن القوم؟ قالوا: من ربيعة. فقال: أمِن هامتها أم من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى. قال: فأيُّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذُهْل الأكبر. قال: أفمنكم عوفٌ الذي يُقال له: لا حُرَّ بوادي عوف؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم بِسطامٌ ذو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم جسَّاس بن مُرَّة، حامي الذِّمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم الحَوْفَزان، قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا: لا. قال: أفمنكم المُزْدَلِف، صاحب العمامة الفَرْدة؟ قالوا: لا. قال: أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فلستم ذُهلًا الأكبر، أنتم ذُهل الأصغر. فقام إليه غلامٌ قد بَقَل وجهُه، يُقال له دَغْفَل، فقال:

إنَّ على سائلِنا أن نسألَهُ .. والعبءُ لا تعرفُه أو تحملُهُ

يا هذا، إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئًا، فمَن الرجل أنت؟ قال: رجلٌ من قريش. قال: بَخٍ بَخٍ، أهلُ الشرف والرياسة، فمِن أيِّ قريش أنت؟ قال: من تيم بن مُرَّة. قال: أمكنتَ واللهِ الراميَ من صفاءِ الثُّغرة! أفمنكم قُصَيُّ بن كلاب، الذي جمع القبائل من فِهْر، وكان يُدعى مُجَمِّعًا؟ قال: لا. قال: أفمنكم هاشمٌ الذي هَشَم الثريدَ لقومه، ورجالُ مكة مُسْنِتون عِجاف؟ قال: لا. قال: أفمنكم شيبةُ الحمد، مُطعِمُ طير السماء، الذي كان في وجهه قمرٌ يضيء ليلَ الظلام الداجي؟ قال: لا. قال: أفمن المُفيضين بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل النَّدوة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الرِّفادة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحِجابة أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السِّقاية أنت؟ قال: لا. واجتذب أبو بكر زمام ناقته، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال دَغْفَل: صادف دَرْءُ السيل دَرْءًا يَصْدَعُه، أما والله لو ثبتَّ لأخبرتُك أنك من زَمَعات قريش، أو ما أنا بدَغْفَل. قال: فتبسَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال عليٌّ: قلت لأبي بكر: لقد وقعتَ من الأعرابي على باقعة! قال: أجل، إنَّ لكلِّ طامَّةٍ طامَّةً، وإنَّ البلاءَ مُوكَّلٌ بالمنطق.

---

[1] من كتاب "طرائف العرب" لأدهم شرقاوي.

جامِعٌ في بلاد القهوة (١)

الرحّالة: محمد بن ناصر العبودي(١)

بزغ فجر يوم الاثنين ١٩٨٤/١٠/٢٩م في مكان لا أعرفه، بل لم أكن أميّز المناظر حولي؛ لأن الليل البهيم كان يمنعني من استجلاء المناظر التي يؤثِّر عليها أيضًا نور الحافلة، حتى شارفت على السابعة، وإذا بنا نصل مدينة لوندرينا – في البرازيل – ووجدنا في الاستقبال في محطة الحافلات الشيخ أحمد صالح المحايري – وهو داعية إلى الله – مبتعثٌ من دار الإفتاء في المملكة العربية السعودية، فأَخَذنا بسيارته إلى بيته الملحق بجامع الملك فيصل؛ وهو المسجد الثاني الذي يُقام في البرازيل بعد مسجد (سان باولو)، وقد كنت سببًا في المساعدة في إقامته، عندما رفعت تقريرًا للملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - فأصدر أمره المطاع بتحويل عشرة آلاف دولار أمريكي، وأمر بإرسال داعية إلى الله إليهم على نفقة المملكة، فبنوا هذا المسجد من تلك المساعدة، وكان هذا المسجد عندما بنوه يُعَدُّ كبيرًا؛ لأن مسجد (سان باولو) - المسجد الأول في البرازيل - لم يكن كبيرًا، ولكن بناءه جيد.

أحاطوا هذا المسجد بحديقة صغيرة فيها أشجارٌ خَضِرَةٌ نَضِرَة؛ منها أشجار القهوة البرازيلية الشهيرة التي عُرفت بها ولاية (بارنا) هذه، وقد تدلَّت عناقيد الثمار منها؛ وهي حبوب البُنّ الخضر إلا أنها لم تنضج بعد، وقد وجدت لدى الداعية الإمام الشيخ أحمد المحايري صورة مقالة كان قد كتبها في جريدة الأنباء التي تصدر بالعربية في البرازيل، وفيها قوله في وصف أشجار القهوة في هذه الولاية.

وددت لو يسمح لي القارئ الكريم أن أتجول معه في (لوندرينا)؛ لنتنزه معًا في مزارع القهوة في شمال (بارنا)؛ فقد أضحت (لوندرينا) عاصمة القهوة البرازيلية، ففي حقولها تُزرع، وفي معاملها تُقشر وتُجفف، وفي مكاتبها تُنظم استمارات الشحن لتصديرها، فلوندرينا قد اتخذت لها مكانًا على الخارطة الجغرافية، وفي كل النفوس التي تشرب القهوة البرازيلية.

إنَّ (حَبَّ) القهوة دائم الخضرة لأنه من الأشجار التي لا تسقط أوراقها ولا تصفر، وزهر القهوة أبيض اللون وكأنّه يُعبر في ذلك عن قلب سكان لوندرينا وشمال بارنا، فيظهر في شهر شباط كأنّه الثلج الذي يسكن على غصيناتها، أو كالقطن المندوف المتناثر فوقها، وتهبُّ نسمات الجمال فتداعب الزهر لتحوله بالتلقيح إلى عناب أحمر ينتظم على الأغصان كعقد من المرجان أو من العقيق القاني، وبذلك تنقلب شجرة القهوة إلى فتاة في ربيع عمرها قد كساها الله تعالى لباسًا سندسيًا فتّانًا بعد أن طبع على ثغرها الباسم آيات من الجمال الأحمر، فيأتي المزارعون لجَني هذا الجمال، فيقطفون العناب الأحمر، لأنه ثمر القهوة نفسه، ويودعونه في المستودعات؛ فينقلب احمراره إلى سواد قاتم، ثم يرسلونه إلى المطاحن الكهربائية لقشره وتعريته بالقوة، ومع ذلك يبقى على صلابته، فيستعملون ضده سلاح النار؛ فيُحمّصونه كَيًّا، ورغم ذلك يبقى ذا قيمة ورائحة زكية، فيطحنونه طحنًا، ومع ذلك يبقى مفيدًا وغاليًا وذا أثر فعّال؛ (كعود زاده الإحراق طيبًا). انتهى كلام الشيخ المحايري.

أرض القهوة البرازيلية – محمد بن ناصر العبودي.

(١) رحّالة وأديب ومؤرخ سعودي، له (١٨٥) كتابًا في (أدب الرحلات)، تُوفي عام ٢٠٢٢م.

لقد أصبح جامع الملك فيصل مَعْلَمًا من معالم مدينة لوندرينا البرازيلية؛ فعلى سبيل المثال رأينا بطاقة بريدية تحمل صورة المسجد واسمه تُباع مع البطاقات البريدية للأماكن المهمة في المدينة، ولقد أُخبرت أن أهل لوندرينا وضعوا صورة المسجد في أوراق للدعاية للمدينة، ولم يفعلوا ذلك في الكنائس، وربما كان مرجع ذلك إلى كون المسجد غريبًا تخلو منه المدن البرازيلية المجاورة في ذلك الوقت، كما أن مصلحة السياحة وضعت صورته بين المعالم السياحية المهمة في المدينة التي ترى أنه يحسن أن يزورها السيّاح.